

الفصل الثاني

نشأة الأصمعي

نشأة الأصمعي بالبصرة (الفترة الأولى) - البصرة
ومسجدها - المريد - شيوخ الأصمعي - رحلات
الأصمعي إلى البادية - علاقته بعلماء الحجاز - كيف
تأثر بشيوخه - حلقاته بالبصرة - تلامذته .

أغفل أكثر من كتب عن الأصمعي النص على سنة ولادته ، فلم نجد ذلك إلا في
مصدرين : أحدهما وهو ابن قتيبة في كتاب المعارف ، والآخر متأخر وهو ابن خلكان في
كتاب وفيات الأعيان :

ذكر ابن قتيبة أن الأصمعي ولد في سنة ثلاث وعشرين ومائة من الهجرة في مدينة
البصرة^(١) ، ويضيق صاحب الوفيات مع ابن قتيبة في هذا التحديد تقريباً فقال : وكانت
ولادة الأصمعي في سنة اثنتين وعشرين ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة^(٢) .

ومع ذلك فابن قتيبة الذي يُعَيِّن مولد الأصمعي هذا التعيين يقارب في ذكر جملة عمره
فيقول في تكملة الخبر السابق : (إن الأصمعي عَمَّرَ نيفاً وتسعين سنة) والخطيب البغدادي
يقول في تاريخ بغداد . إن الأصمعي بلغ ثمانياً وثمانين سنة ، ومع هذا فالأصمعي نفسه
لا بدري متى ولد وقد مرَّ بك حديث أبي حاتم السجستاني وقد سأله : كم سنة مرت من
عمرك ، فقال : لا أدري !

ونشأة الأصمعي المبكرة غامضة أيضاً ، ولا نحب في بحث علمي كهذا أن نتمثل طفولة
الأصمعي معتمدين على تخيلاتنا وتصورنا ، ولم يرق لنا ما ذهب إليه الدكتور عبد الجبار
الجورمرد في هذا^(٣) ، فأثرنا ترك هذه الفترة لمن يستطيع أن يُجَلِّها بعدنا ، وحسبنا أن نراه في

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٣٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

(٣) الأصمعي . تاريخه وآثاره ٥٤ .

مسجد البصرة ينتقل من حلقة إلى حلقة ، ويلوذ بآبي عمرو بن العلاء في المسجد تارة ، وفي بيته تارة أخرى .

وأحسب أن أسرة الأصمعي كانت على شيء من اليسار بالقدر الذي كفل له التفرغ للعلم والتحصيل إلا من بعض الأعمال التي لم يجد في أدائها مضيعة لوقت أو مصرفاً عن تحصیل كحراسة الإبل . وقد أشار الأبشهي إلى ذلك في كتاب المستطرف فقال عن الأصمعي : (ضلّت لي إبل فخرجت في طلبها ، وكان البرد شديداً فالتجأت إلى حي من أحياء العرب) (٤) .

لم تلهه هذه الأعمال عن ألواحها وما هو بسبيله من استنشاد الأعراب ، واستيعابه لأقوالهم : يقول في بقية الخبر السابق (..... فإذا بجماعة يصلّون ، وبقريهم شيخ ملتف بكساء رقيق ، وهو يرتعد من البرد ، فجلست بجانبه ، وقلت له أنشدنا ، فقال :

أيا رب ، إنّ البرد أصبح كالخاء وأنت بحالي يا إلهي أعلم
فإن كنت يوماً في جهنم مُدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم
ويأخذ الأصمعي في معاتبته أن ترك الصلاة فيجيبه الشيخ :

أيطمعُ ربي أن أصليَ عارياً ويكسوَ غيبي كسوة البرد والحرّ
فوالله لا صليت ما عشت عارياً عشاء ولا وقت المغرب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
فلا يترك الرجل حتى يحفظ عنه قوله وإنشاده .

وكان اصطناع أسرة الأصمعي لرعى الإبل من أسباب صلته بالبادية على هذه الصورة ، فلقى الأعراب ، واستنشدهم الشعر ، وتنبه إحساسه له ، وبدأت هوايته في سماع الأشعار وتدوينها وحفظها ، فلم يبلغ الحُلُم حتى حفظ أكثر من عشرة آلاف أرجوزة (٥)
ظل هذا التحصيل مذهبه ودينه ، يحمل ألواحها إذا فرغ من المسجد يدور بها في أزقة البصرة ، ليجد أعرابياً يسأله ، أو يناقشه أو يستنشه حتى عرفه أهل البصرة على هذه الصفة ، وهو يحكي هذا فيقول :

كنت أغشى بيوت الأعراب أكتب كثيراً ، حتى ألقوني وعرفوا مرادى ، فأنا يوماً ماراً

(٤) المستطرف ٢ : ١٢٣ .

(٥) انظر : أخبار النحويين البصريين ٥٢ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ ، وتزعة الألبا ١٥٠ وإنباه الرواة ٢ : ١٩٧ .

بعذارى البصرة قالت لى امرأة : يا أبا سعيد ، انت ذلك الشيخ ، فإن عنده حديثاً حسناً فاكته إن شئت ، فأثبت شيخاً هماً ، فسلمت عليه ، فرد على السلام ، وقال : من أنت ؟ قلت : أنا عبد الملك بن قريب ، قال : ذو يتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم ؟^(٦) . ويقول له أعرابي وقد رآه يكتب كل ما يصل إلى سمعه : ما أنت إلا الحفظة تكتب لفظ اللفظة .

ويقول عن نفسه : رآني أعرابياً وأنا أكتب كل ما يقول ، فقال : ما تدع شيئاً إلا نَمَصْتَهُ^(٧) .

وله في هذا حكايات تروى على سبيل الترويح ، وتعبّر في الوقت ذاته عن هذا المسلك : رآه شيخ وهو يكتب عن صبية يتراجزون ، فقال له : أكتب عن هؤلاء الأقزام الأدناع ؟ ويلقى كناساً يتغنى بقول الشاعر :

أضاعوني وأى فنى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
فيحاورة ويشاكسه - وهزأ من اسم غلام من بنى أسد ، ويدخل معه في حوار طويل . وهو في كل هذا يتخذ من مادة اللغة والأخبار والأشعار أساساً لتلك المحاورات . كان هذا هو الأصمعي الناشئ بين المسجد وبيوت الأعراب في أزقة البصرة . ونوجز فيما يلي تعريفاً بهذه البيئة التي حمل علمه عنها .

البصرة ومسجدها :

أنشئت البصرة في عهد عمر بن الخطاب في سنة أربع عشرة من الهجرة بعد أن استشير في بنائها . فأذن بذلك على ألا يحول بينه وبين جنوده بحر فخرج عتبة بن غزوان من الحيرة في ثمانمائة رجل حتى نزل في موضع البصرة - وهي قرية من المشارب والمرعى والمحتطب - فأقام بها بيوتاً ومسجداً من القصب ، فكانوا إذا غزَوْا نزعوا ذلك القصب وحزموه ، فإذا فرغوا من غزوهم أعادوه . ثم أخذت يد العمران تتعهد بها البناء والتحسين والإكثار من زراعة النخل ، وأخذت تعج بالقبائل العربية التي وفدت إليها وبأبناء الفرس والهنود وغيرهم حيث كانت مرفأ العراق ومقصد السفن التاجر ، والناس على شتات أجناسهم يجدون فيها متسعاً من العيش وطيب الإقامة : وصفها فتى من أهل المدينة لأصحابه فقال : (خير بلاد الله للجائع

(٦) الزمر ٢ : ٣٠٧ ط الحلى .

(٧) أخبار التحوين البصريين ٥٢ .

والغريب والمفلس .. (٨)

ويعدد ميزاتنا خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان فيقول : (نحن أكثر الناس عajaً وساجاً ونحراً وديباجاً ، وبرذوناً هملجاً ، وخريدةً مغناجاً بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب . أوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب : فأما الرطب عندنا فنز النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته : هذا على أفنانه ، كذاك على أغصانه ، هذا في زمانه كذاك في إبانه ، من الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل)

ويقول الأصمعي : سمعت الرشيد يقول : نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة ! (٩) .

كان أول ما يهتم به المسلمون عندما يستقر بهم المكان أن يولوا عنايتهم إقامة المسجد على مقربة من نزل الأمير : يؤمهم في صلاتهم ، ويلقى إليهم بتعاليمه ، وكان سكان البصرة قد دخلوا منذ الفتح في دين الله ، ووجدوا أنفسهم أمام أصول عامة جاء بها القرآن والسنة ، ووجدوا أنفسهم في حاجة إلى تفهمها ودراستها ، فعنوا أول الأمر بقراءة القرآن وتحصيل الحديث ، وهم في سبيل هذا لا بد لهم من معرفة لغة العرب ، وهكذا أخذت كل خطوة تسلمهم إلى أخرى ، وكان المسجد هو المكان الذي تركز فيه كل الوجوه المختلفة للنشاط الفكرى والاجتماعى أيضاً ، ولم يقتصر أمره على المسلمين ، وإنما شمل الحركة الفكرية أيا كان مصدرها : يقول الدكتور طه حسين في المقال الذى قدّم به كتاب نقد النثر .

(.....) ولم تكن الكوفة والبصرة يومئذ مجرد مساجد يتعبد فيها المسلمون ويفصل في أقضيّتهم ، بل كانت فوق ذلك مدارس يغشاها العلماء لتدريس اللغة والنحو والحديث والفقه ، والإخباريون ليقصّوا على سامعهم أخبار المغازى والفتوح والفن ، وزعماء الأحزاب السياسية والفرق الدينية للجدل والمناظرة ، وكان يجلس إلى هؤلاء جميعاً أفناء من الناس ما بين مسلم ويهودى ونصرانى ومجوسى ، وما بين عربى عاقل مزهو طموح تسهويه فصاحة اللسان ، وأعجمى نشيط ، ولكنه متبرم بحاله غير راض عنها)

كانت البصرة بمسجدها الجامع أسبق مدن العراق ، وأعلاه شأنها في مضمار العلوم واللغة والآداب ، وكان المسجد أول جامعة إسلامية أخرجت من أساطين العلم أبا عمرو بن العلاء ،

(٨) معجم البلدان ٢ : ٢٠٢ .

(٩) المصدر السابق ٢ : ٢٠٥ - ٢٠٧ .

ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمر الثقفي ، والخليل بن أحمد ، وحامد بن سلمة ، وشعبة ابن الحجاج ، وخلفاً الأحمر ، وأبا زيد سعيد بن أوس الأنصاري ، وأبا سعيد عبد الملك ابن قريب الأصمعي ، وأبا عبيدة معمر بن المثنى ، وسيويه ، وأبا حاتم السجستاني ، وأبا الفضل الرياشي ، وأبا عثمان المازني ، والمبرد .. إلى غير هؤلاء .

وظل نشاط البصرة العلمي حتى منتصف القرن الرابع الهجري وإن كان الاضمحلال قد أخذ يدب إليها منذ دهرتها ثورة الزنج في سنة سبع وخمسين ومائتين ، وظهور بغداد كعاصمة للدولة العباسية واستقدامها لعلماء الكوفة بادئ الأمر لعلاقتهم الطيبة برجال الدولة ، ثم رجال البصرة الذين ذهبوا كمدعوين للإفادة منهم .

المريد :

إذا تحدثنا عن البيئات العلمية التي كان لها دور في تكوين الأصمعي - تعين أن نشير إلى المريد الذي كان يمد البصرة بالمدد الواسع من الشعر واللغة : كان المريد سوقاً من أسواق البصرة ، على بعد ثلاثة أميال من طرفها من جهة الصحراء يجتمع فيه أهل البادية الذين يجيئون من باديتهم بما يريدون المتاجرة فيه ، ويخرج إليهم أهل البصرة ليشتروا ، والبدوي كما نعلم مفتون بالشعر وفنون القول ، تجده وقد تهيأت له المناسبة في هذا الاجتماع الكبير قد تسنم ناقته ، أو وقف على بارز من الأرض تهدير أشداقه بما أعدَّ من كلام وسط جمع من أهل البصرة والأعراب الوافدين إلى السوق ، وكان بهذا أنسب مكان لإذاعة الإنتاج الأدبي : اختاره جرير ، والفرزدق ، والراعي في العصر الأموي ميداناً للمهاجاة ، فكان لكل حلقة يجتمع من حوله أنصاره والراغبون في شعره ، ثم تفرق هذه الجموع بعد أن تختلط وتتناقش وتختلف لتُطَيَّر أشهر الأهاجي التي عرفها التاريخ الأدبي .

كان هذا النشاط في العصر الأموي وقد تاججت نيران العصبية ، أما في العصر العباسي - فكان للمريد رسالة أخرى : كان أهل البصرة يخرجون إلى الأعراب يبادلونهم أسباب معاشهم ، وفيهم فئة من الطلاب يلتقطون الكلم الصحيح من أفواههم استكمالاً أو تطبيقاً لما انتهوا إليه في دراساتهم للنحو واللغة والشعر في الحضر ، وكان الأصمعي يذهب إلى المريد يستمع إلى الأعراب ، ويملأ ألواحه من غريب كلامهم .

ولما أحسَّ هؤلاء الأعراب آثارهم في أهل البصرة وطُلبها - وفدوا إلى المريد بقصد

التعليم . وكان من أشهرهم أبو خيرة ، وأبو لحيانة ، وأبو العذافر ، وأبو مهدي ، وأبو العراف ، والمتّجّع ، وأبو ضمضم ، وأبو الدُّقِيش .. إلى غير هؤلاء .
جلس الأعراب وسط طلابهم فترة من الوقت ، ثم جعلوا مساكنهم بين المريد والبصرة ، ثم أخذوا طريقهم إلى البصرة نفسها ، وطال مكثهم في الحضر ، ففسدت سليقتهم ، وما لبث البصريون أن تشككوا فيهم ! لأنهم وجدوا ألسنتهم طاعت بكلام الحضريين فبهرجواهم وزيفوهم !

• لمع الجاحظ هذه الأمارات على يزيد بن كثوة (في بعض المصادر زيد بن كثوة) فقال : كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة (أي جعل منزله بين المريد والبصرة) ، وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين^(١٠) ، وبالرغم من تعلّقه هذا بالبادية فقد كان مجرد قربه من الحضر يؤثر تأثيراً سيئاً على لسانه .

وزيفوا أبا خيرة أيضاً : سأله أبو عمرو بن العلاء عن قولهم - استأصل الله عرقانهم - فنصب أبو خيرة التاء من عرقانهم ، فقال له أبو عمرو ، هيهات يا أبا خيرة لان جلدك ! ذلك أن أبا عمرو استضعف النصب لأنه كان سمعها منه بالجر^(١١) .

ويبدو أن هذا الذي ظهر على ألسنة الأعراب ليس كله من فعل البيئة ، بل كان لبعضهم رغبة في التزيد والخلق إرضاءً للساثلين أو مباهاة بكثرة المعرفة . ولم يجد طلاب اللغة بعد أن ساء رأيهم في الأعراب بدءاً من شدّ الرجال إلى البادية ، فطوفوا في الجزيرة يسمعون اللغة وغريبها من أهلها الخلف ، وفاخر البصريون الكوفيين بهذا العمل ، فكانوا يغمزونهم بقولهم : (نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع . وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز والكوامخ)^(١٢) .

وكان أبو يزيد يعزو فساد علم الكسائي إلى أنه أخذ عن أعراب فسدت سليقتهم ، فقال : قدم علينا الكسائي البصرة ، فلقى عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم صار إلى بغداد ، فلقى أعراب الحطمية ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان

(١٠) البيان والتبيين ١ : ١٧٤ ط السندوي

(١١) نزعة الألبا ٣٢ : ٣٣ .

(١٢) معجم البلدان ٢ : ٢ : ٢٠٥ .

أخذه بالبصرة كله (١٣) ! واضطر الكسائي بعد ذلك أن يسلك مسلك البصريين ، وأن يرحل إلى البادية . ولصاحبنا الأصمعي رحلات إلى البادية ستحدث عنها بعد قليل .

شيوخ الأصمعي :

ذكرت الأخبارُ عدداً كبيراً من شيوخ الأصمعي ، جلس إلى بعضهم وأطال ، وجلس إلى آخرين فترات محدودة ، وجمع بين علوم هؤلاء وهؤلاء ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد ، وخلف الأحمر ، وسمع عبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحاد بن ميسرة المعروف بالراوية ، وحاد بن سلمة ، وسفيان بن عيينة ، ويعقوب بن محمد بن طحلاء ، ومسعر بن كدام ، وسليمان بن المغيرة ، وقره بن خالد وغيرهم .

بعض هؤلاء علماء باللغة أو بالشعر أو بالنحو أو بالقراءات ، أو بالحديث ، أو يجمع بين نوعين أو أكثر من هذه العلوم ، ونحن نعرف بأخصصهم الذين نعتقد أن الأصمعي تأثر بهم :

كان أبو عمرو بن العلاء صاحب قراءة ، وأعلم الناس في عهده بالأدب والعربية والشعر ، أخذ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة عن شيوخ تقدموه ، منهم : أنس بن مالك ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة . تعلق أبو عمرو بالقديم من الأشعار ، وكان يتوقف عن رواية شعر المحدثين وإن أعجب بهم كان إذا سمع شعر جرير والفرزدق وأمثالهم استقبله بمزاج من الإعجاب والحرَج ويقول : لقد أحسن هذا المولد حتى همت أن آمر صبياننا بروايته (١٤) فكان إذن يعدهم مولدين بالإضافة إلى الشعراء القدامى حين يرى أن الشعر ختم بذي الرمة ، والرجز برؤبة بن العجاج (١٥) ورؤبة لم يكن من المخضرمين ولا من الجاهليين ، وعلى هذا لا يستقيم الخبر الذي أورده ابن رشي من أن أبا عمرو لا يبعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين إلا إذا خرجنا من هذا المفهوم إلى مسألة الاحتجاج بالشعر وأنه كان في هذا فقط يفضل أشعار القدماء من الجاهليين والمخضرمين : يدل ذلك على قول الأصمعي : (جلست إلى أبي عمرو

(١٣) معجم الأدباء ١٣ : ١٨٢ .

(١٤) العمدة ١ : ٥٧ ط هندية سنة ١٩٢٥ . ص ٧٣ ط محمد محي الدين عبد الحميد .

(١٥) وفيات الأعيان ٣ : ٨٨ .

ابن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي (١٦).

ونتيجة لهذا المسلك لم يتحمس للقياس الذي نادى به ابن أبي إسحق ، وإنما ظل يعتمد على السماع وحده ، شديد التسليم لما يسمعه من العرب (١٧) ، ويتقن منه ما غلب استعماله : سأله سائل : خبرني عما وضعت مما سميت عربية يخلل فيه كلام العرب كله ؟ قال : لا ، قال : كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهو حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات (١٨) ، ثم بلغ به التحرج أن أحرق كتبه في أخريات أيامه مخافة أن يكون فيها غير الصحيح .

وكان أبو عمرو يكره الكلام في القدر تأمناً وتحرّجاً لنهي الرسول عنه : سأله معمر عن قوله تعالى : (وما كنا له مقرنين) فلم يحب ، فلما ألحَّ عليه وقال : إني سمعت قتادة يقول : مطيقين - سكت ، فلما عاود إلحاحه قال أبو عمرو : حسبك قتادة ! فلولا كلامه في القدر وقد قال ﷺ - (إذا ذكر القدر فأمسكوا) - لما عدلت به أحداً من أهل دهره (١٩) . كان عالماً جليلاً ، يأتيه الطالبون ينالون فضل علمه ، تضيق بهم حلقاته بعد أن وثق به علماء عصره . وقال فيه يونس بن حبيب لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو كله ! (٢٠) .

إلى هذا الشيخ جلس الأصمعي ولازمه ، وأعجب به ، وأحبه حتى ما كاد يفارق حلقاته وتأثر الأصمعي بكل مذاهب أبي عمرو ، وبقيت الانطباعات التي ورثها عنه ظاهرة في سلوكه وانجهااته على النحو الذي سنذكره بعد .

وكان من أساتذته أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي صاحب أبي عمرو بن العلاء ، وكان صاحب قراءة أيضاً ، وبالرغم من انصرافه إلى القراءة ووجوهها - كان له بصير بالشعر ونقده ، وأستشهد بآرائه محمد بن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) في مواضع كثيرة .

وعيسى بن عمر من أوائل الذين ألفوا في النحو ، ويزعم سيويه في محادثة له مع الخليل

(١٦) البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ .

(١٧) المصدر السابق ١ : ٣٠٩ ومعجم الأدباء ١١ : ١٦٠ .

(١٨) وفيات الأعيان ٣ : ١٣٨ .

(١٩) وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٨ .

(٢٠) طبقات الزبيدي ١١٧ ومعجم الأدباء ١١ : ١٦٠ .

أن عيسى صَنَّفَ نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو ذهب ولم يبق منها سوى تصنيفين : كتاب الجامع ، وكتاب الإكمال^(٢١) .

والرأى عندى أن هذا العدد من التصانيف لا ينصرف مفهومه إلى الكتب الكبيرة ، ولكنها - إن صَحَّ الخبر - كتيبات أو رسائل . كان ميدان عيسى إذن قراءة القرآن ، ودَرْس النحو واللغة ورواية الشعر ، فأخذ عنه الأصمعي علم القراءات بصفة خاصة في جملة من الآخذين عليه^(٢٢) .

وجلس الأصمعي إلى يونس بن حبيب وهو من علماء اللغة والنحو والغريب ، واسع الرواية ، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات ، وكان له في العربية مذاهب يتفرد بها^(٢٣) ، وكان يونس عالماً بالشعر نافذ البصيرة في تمييز جيده من رديئه ، عارفاً بطبقات الشعراء حافظاً لأشعارهم ، يرجع إليه في ذلك كله .

ومن شيوخ الأصمعي الخليل بن أحمد ، سمع منه النحو واللغة ، وقيل : إنه حاول فهم العروض منه ، فاستعصى عليه : روى بسنده عن الخليل قال : (كان يتردد إلى شخص يتعلم العروض وهو بعيد الفهم ، فأقام مدة ولم يعلق على خاطره شيء منه فقلت له يوماً : قَطِّعْ هذا البيت :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
فشع معى في تقطيعه على قدر معرفته ، ثم نهض ولم يعد ، فعجبت من فطنته لما قصدته في البيت مع بعد فهمه ! حكى ذلك الخليل دون أن يصرح باسم الأصمعي ، ولكن السراfi نسبها إلى الأصمعي ، كما ذكر هذه الواقعة بتفاصيلها أبو الفتح عثمان بن جني في كتاب الخصائص وعلّق عليها بأن الأصمعي ليس ممن ينشط للقياس ولا للحكاية التعليل لتوفره على ما يروى ويحفظ^(٢٤) .

وجلس الأصمعي إلى طراز آخر من الرجال هم رواة الشعر بخاصة . وكان أمثلهم في البصرة خلف الأحمر ، وقد بلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء حتى

(٢١) معجم الأدباء ١٦ : ١٤٦ ، وإنباء الرواة ٢ : ٣٤٧ .

(٢٢) وفيات الأعيان ٣ : ١٥٤ .

(٢٣) أخبار الحويين البصريين ٢٧ .

(٢٤) الخصائص ١ : ٣٦٢ ط دار الكتب .

يُشَبَّهُ بذلك على جَلَّةِ الرِّوَاةِ ولا يفرِّقوا بينه وبين الشعر القديم^(٢٥) من ذلك قصيدته التي نحلها ابن أخت تأبط شراً والتي أولها :

إِنَّ بالشَّعْبَ الَّذِي دُونَ مَلْعٍ لِقَتِيلًا دَمُهُ مَا يُطْلُ
فإنَّهَا جازت على جميع الرواة ، فما فطن إليها إلا بعد دهر طويل ، وبعد أن تأملوا قوله :
خير مانابنا مصمَّثل جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ
قال بعضهم : الشطر الأخير من كلام المولدين ، فحينئذ أقر بها خلف .

ومع هذا الذي عرف عن خلف^(٢٦) كان أبو زيد يحله ويقدره ، ويشهد له ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يأتي إلى مجلسه ، فيجلس بين يديه ويقول : أُمِرْنَا أَنْ نَتَوَاضَعَ لِمَنْ نَعْلَمُ مِنْهُ^(٢٧)

ويقول ابن سلام ، كنَّا إِذَا سَمِعْنَا الشَّعْرَ مِنْ أَبِي مُحَرَّرٍ لَا نَبَالِي أَنْ نَسْمَعَهُ مِنْ قَائِلِهِ^(٢٨) .
جلس الأصمعي إلى خلف فترة طويلة أخذ عنه الشعر والنظر فيه وفي معانيه ، وكان الأصمعي قد تَرَوَّدَ مِنَ النَحْوِ فِي حَلَقَاتِ الشُّيُوخِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَاقَ أَسْتَاذَهُ ، وَصَارَ أَبْعَدَ نَظْرًا فِي الشَّعْرِ وَأَوْسَعَ فِيهِ رَوَاةً .

وهناك طراز آخر من العلماء كانوا محدِّثِينَ فِي الْأَصْلِ ، وَلَكِنْهُمْ شَارَكُوا فِي اللَّغَةِ وَالشَّعْرِ وَالْأَدَبِ ، جَلَسَ إِلَيْهِمُ الْأَصْمَعِيُّ وَأَخَذَ عَنْهُمْ ، وَبَادَلَهُمُ الْمَعْرِفَةَ ، مِنْهُمْ : حَادُّ بْنُ سَلَمَةَ الْبَصْرِيُّ ، وَهُوَ إِلَى جَانِبِ شَهْرَتِهِ فِي الْحَدِيثِ إِمَامٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، قَالَ عَنْهُ يُونُسُ : (كَانَ حَمَادُ رَأْسَ حَلَقَتِنَا ، وَمِنْهُ تَعَلَّمْتُ الْعَرَبِيَّةَ)^(٢٩) .

وكان سبيل الأصمعي إلى حاد بن سلمة - شعبة بن الحجاج ، فالتقى الثلاثة على موعد في مجلس حاد ، فقال له شعبة : يا أبا سلمة ، هذا الفقي الذي ذكرته لك ، وأشار إلى الأصمعي فحياه وسأله : كيف تنشُد هذا البيت :

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبَنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا ، وَإِنْ عَقَدُوا شَدَّوْا
فأنشد الأصمعي البيت ، وكسرياء البنى - فردّه حاد قائلاً : يا بني . أولئك قوم إن بنوا

(٢٥) إنباه الرواة ١ : ٣٤٨ .

(٢٦) انظر ما كتب عن خلف في إنباه الرواة ، طبقات الزبيدي ، والوفيات .

(٢٧) إنباه الرواة ٢ : ٥٦ .

(٢٨) طبقات الزبيدي ١٧٨ .

(٢٩) إنباه الرواة ١ : ٣٢٩ .

أحسنوا البنى ، (بضم الباء) . إنما بنى القوم المكارم ، ولم يبنوا باللبن والطين قال الأصمعي : فلم أزل هائباً لحمد ابن سلمه ولزمته (٣٠) .

ومن المحدثين الذين جلس إليهم الأصمعي شعبة بن الحجاج ، وكان يجمع إلى علم الحديث معرفة واسعة بالشعر ، فإذا عقد حلقة لإملاء الحديث ، وأحسَّ بالتعب - عرج على الشعر وتكلم فيه : رأى أبا زيد في أخريات الناس وكان قد ضجر من إملاء الحديث فاستدناه ، قائلاً :

استعجمت دار مئى ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار
إلى يا أبا زيد ، فجعلنا يتحدثان ويتناشدان الأشعار ، فقال بعض أصحاب الحديث ،
يا أبا بسطام ، تقطع إليك ظهور الإبل ، لنسمع منك حديث النبی ﷺ ، فتدعنا ، وتقبل
على الأشعار ! فغضب شعبة ثم قال : يا هؤلاء ، أنا أعلم بالأصلح لي ، أنا والله الذي لا إله
إلا هو في هذا أسلم مني في ذلك (٣١) .

أعجب شعبة بالأصمعي ، وقدر فيه مواهبه ، ولمح فيه أسباب النضج ، فأولاه ثقته حتى
قال له : (لو فرغت للزمتك !) (٣٢) وتصادف أن كان الأصمعي في مجلس شعبة وهو يفسر
(جرس طير الجنة) فقرأها بالشين ، فقال الأصمعي : جرس . فنظر إليه وقال : خذوها
منه ؛ فإنه أعلم بذلك منا (٣٣) .

وحدث شعبة يوماً بمحدث قال فيه : فذوى المساك (بفتح الباء) ؛ فقال له رجل
حضره : إنما هو فذوى المساك (٣٤) ، فنظر شعبة إلى الأصمعي كأنه يستوضحه ، فقال له :
القول ما قلت ، فزجر القائل .

هؤلاء بعض شيوخ الأصمعي في العراق ، وله بعد ذلك جولات في الجزيرة يأخذ عن
أعرابها ، ويستمع إلى علماء الحجاز الذين سنعرف بهم بعد قليل . وإذا قد فرغنا من هؤلاء

(٣٠) معجم الأدباء ١٠ : ٢٥٤ .

(٣١) نزهة الألبا ٨٩ ، ٩٠ .

(٣٢) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

(٣٣) للزهر ٢ : ٣٥٤ .

(٣٤) يريد أنه بفتح الواو والحقيقة كما في مختار الصحاح وغيره أن ذوى بفتح الواو هو اللغة المشهورة وأما ذوى بكسر
الواو فلهجة كما قال يونس وأما ابن السكيت فقد أنكروا ما قاله يونس .

الذين جلس إليهم الأصمعي وأطال - فإنه يشير إلى صنف آخر تأثر به في سياق الشعر ورواية اللغة :

يقول التوزي فيما يحكيه محمد بن يزيد المبرد عنه : (كنا عند الأصمعي وعنده قوم قصدوه من خراسان ، وأقاموا على بابه فقال له قائل منهم : يا أبا سعيد ، خراسان ، يرجف بعلم البصرة ، وعلمك خاصة ، وما رأينا أصح من علمك ، فقال : لا عذر لي إن لم يصح علمي ، دع من لقيت من العلماء والفقهاء والرواة للحديث والمحدثين ، ولكن قد لقيت من الشعراء الفصحاء وأولاد الشعراء : رؤبة ، ومسرود بن اللعين ، وبلالا . ونوحاً ابني جرير . ولبلة ابن الفرزدق . ومحمد بن علقمة التيمي ، وأبا بابل إهاب بن عمير . وقطينة اللخمي ، وخطاماً المجاشعي ، وابن ميادة . والحسن بن مطير ، وابن هرمة ، وابن أذينة ، والحكم الحضري ، ودكيناً العذري^(٣٥) وابن شوذب المدني ، وأبا الأخزر الحناني ، وجندل بن المثني ، وأبا الحيانة ، والذي هاجاه ، وهو الأبرش .

ولقيت أبا الرجف ، ومقاتل بن أبي داود ، وأبا خيرة ، وأبا العراف ، وأبا العذافر ، وعامرة بن عطية ، وطفيلاً الكنانى ، وقتادة بن يعرب الشكري ، وابن الدمينية ، وأبا حية أنس ، وابن الطثرية ، وأبا ترسيب وبفصاحته يضرب المثل ، والموار ، ومصرف بن الحارث ، وابنه الحارث بن مصرف ، وأبا العميل بن الحارث ، ومحبس بن أرطاة ، وعريقاً الكلبي ، وعلاكم بن نهير ، وابن شراد الحنطفاني ، والعجيف العجلي ، وأبا القرين الفزاري ، وحفظت عنهم . وسمعت منهم ، وسبقني أبو النجم ، وذو الرمة ، ومعبد بن طوق ، والوعيل ابن كليب ، "وزياد الأعجم ، ونهار بن توسعة ، وصخر ومغيرة ابنا حبناء ، وابن عرادة تعليل ولي بعضهم روية لارواية (أى دراسة ودراية) وما عرف هؤلاء غير الصواب : فمن أين لا يصح علمي ؟

لقد جمع الأصمعي في هذا الخبر صنفين من الرجال : شعراء يسمع منهم الشعر ويرويه ، أو أبناء شعراء يسمع منهم شعر آبائهم ؛ وأعراباً يعي عنهم اللغة ، وهذا يوضح لنا اتجاهات الأصمعي ، وأبرزها رواية الشعر واللغة .

(٣٥) هكذا وردت في مقدمة كتاب المثني من أخبار الأصمعي ، والذي في الأغاني ٥ : ٢٦٤ (مكثنا) وكذلك وضعه المزياني في حرب الميم .

رحلات الأصمعي إلى البادية :

كان طلاب الشعر واللغة يجدون بغيرهم عند شيوخهم في حلقات المسجد . فإن أراد بعضهم مزيداً من العلم لجأ إلى الأعراب الذين كانوا ينزلون المريد . يطمئن إلى فصاحتهم . ويسمع منهم الشعر واللغة : كان بشار ، وأبونواس ، والأصمعي ، وأبو زيد - من زوار المريد فلما فسدت سليقة الأعراب بطول مكثهم في الحضر أو بالقرب منه تعين على الطالب الذي ينشد تمامه أن يجلس إلى خلص الأعراب في البادية .

شارك الأصمعي في هذه الرحلات ، وأوغل في البادية ، وتنقل في أنحاء الجزيرة على النحو الذي سنشير إليه ، ونكتفي فيه بذكر بعض هذه الرحلات :

تجاوز المريد إلى مكان بين اليمامة والبصرة ، فترل على رجل من بني الصيداء من أهل القصيم^(٣٦) : يقول الأصمعي : (..... فأصبحت وقد عزمْتُ على الرجوع إلى العراق ، فأتيت أبا مثنوى فقلت : إني قد هلعت من الغربة ، واشتقت أهلي ، ولم أفد في قِدَمتي هذه إليكم كبير علم . وإنما كنت أغتفر وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة ! فأظهر توجعاً ، ثم أبرز غداء له ، فتفديت معه ، وأمر بناقة له مهريّة - كأنها سبيكة لجين - ثم ركب وأردفني ، وأقبلها مطلع الشمس ، فما سرنا كبير مسير حتى لقينا شيخاً ... فسلم عليه صاحبي . وسأله عن نسبه ، فاعتزى أسدياً من بني ثعلبة فقال : أنشد أم تقول ؟ فقال كلاً قال : أنشدنا رحمك الله ، وتصلّق على هذا الغريب بأبيات يعين عنك ، ويذكرك بهن فقال : إى هالله إذن ، ثم أنشدني :

لقد طال يا سوداء منك المواعدُ	ودون الجَدِ المأمول منك الفراقُدُ
تُمَنِّينًا بالوصل وعداً - وغيمُكم	ضبابٌ - فلا صحوٌ - ولا الغيم جائدُ
إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجدُ	بفضل الغنى - ألفت مالكَ حامدُ
وقل غناء عنك مالٌ جمعته	إذا صار ميراثاً ، وواراك لاحدُ
إذا أنت لم تعرك بجنبك بعض ما	يريب من الأدنى رماك الأبعادُ
إذا الحِلْمُ لم يغلب لك الجهل لم ترل	جنيباً كما استلى الجنيبةَ قائدُ

(٣٦) القصيم : موضع بين اليمامة والبصرة يشقه طريق بطن فلج : القاموس المحيط ج ٤ مادة في س م .

إذا أنت لم تترك طعاماً نُجِبَهُ ولا مقعداً تُدعى إليه الولائد
تجللت عاراً لا يزال بَشْبُهُ سبابُ الرجالِ - نثرهم والقصائد
ثم أنشد قصيدة لا تقل جالاً عن هذه رأينا أن نقلها لقائدها يقول :
تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ وليس على رَبِّبِ الزَّمانِ مَعُولُ
فلو كان يُغْنَى أن يرى المرءَ جازعاً لنازلةً أو كان يُغْنَى التذللُ
لكان التَّعَزَّى عندَ كل مصيبةٍ ونازلةٍ بالحرِّ أولى وأجملُ
فكيف وكلُّ ليس يعدو حامَهُ وما لامرئٍ عما قضى الله مَرَحْلُ
فإن تكن الأيامُ فينا تبدلت بيؤسى ونعمى والحوادثُ تفعل
فما لَيْنَتْ مِنَّا قناةٌ صليبةٌ ولا ذللتنا للتي ليس تجمل
ولكن رحلتها نفوساً كريمةً تُحْمَلُ ما لا يستطيع فتحملُ
وقينا بعزمِ الصبرِ منا نفوسنا فصحت لنا الأعراضُ ، والناسُ هزل
قال الأصمعي : قمت والله وقد أنسيت أهلي ، وهان على طول الغربة وشظف العيش
سروراً بما سمعت (٣٧) .

وهذا غلام من بني أسد ، فيُخْلَفُ ظَنَّهُ ذلك الغلام : يروى عبد الرحمن عن عمه قال :
بينا أنا بحمي ضرية (٣٨) إذ وقف على غلام من بني أسد في أطوار ما ظننته يجمع بين كلمتين ،
فقلت : ما اسمك ؟ قال : حُرَيْقِص ، فقلت : أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصاً حتى
حرقوا اسمك ؟ فقال : إن السَّقَطَ ليحرق الحرجة ، فعمجت من جوابه ، وقلت : أنشد
شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم ، أنشدك لموارثنا (٣٩) ، فقلت افعل ، فقال :
سكنوا شَيْئاً والأحصَ وأصبحوا نزلت منازلهم بنو ذبيان
وإذا يقال : أتيتمو لم يبرحوا حتى تقم الخيل سوق طعان (٤٠)
وفي خلال رحلاته ينقل إلينا الأصمعي بعض الصور القاسية التي كان يعانيها الأعراب :
من ذلك ، ما يرويه عبد الرحمن عن عمه :

(٣٧) الأمل ١ : ١٧٠ ، وزهر الآداب ٤ : ١٢٣ ، والمزهر ٢ : ٣٠٥ .

(٣٨) الحمي : حميان فحى ضرية . وحى الريدة ، الأولى أشهرها ، وأسبرها ذكراً وهي حمى كليب بن وائل وبها

قبر كليب : معجم البلدان ٣ : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٣٩) هو الوار بن سعيد بن حبيب الفقعي من بني أسد بن خزعة .

(٤٠) الأمل ١ : ٦٦ ، ٦٧ .

(وقف علينا أعرابي ونحن برملة اللوى فقال : رحم الله امرأً تمجج أذناه كلامي ، وقدم معاذة من سوء مقامى ، فإن البلاد مجدبة ، والحال مُسغبة ، والحياء زاجرٌ يمنع من كلامكم ، والفقر عاذرٌ يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأً أمرَّير أو دعاً بخير .

فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : اللهم غفرأ ، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب^(٤١) .

وتسوقه أقدامه إلى وادٍ موحش ، فيجد عجوزاً ، فيحملها على الكلام قال : إني أراك معتزة في هذا الوادى الموحش ، والحلة منك قريب ، فلو انضمت إلى جنابهم ، فأنست بهم قالت : (يا ابن أخى ، إني لآنس بالوحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئن قلبي إلى هذا الوادى الموحش ، فأتذكر من عهدت ، فكأنى أخاطبُ أعيانهم وأترأى أشباحهم ، وتتخيل لى أندية رجالهم ، وملاعب ولدانهم ، ومندى أموالهم والله يا ابن أخى ، لقد رأيتُ هذا الوادى يشع اللديدين ، بأهل أدواح وقباب ، ونعم كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح يبارون الرياح ، ويجمعون الصباح ، فأحال عليهم الجلاء قماً بفرقة . فأصبحت الآثارُ دارسةً ، والحال طامسة ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به^(٤٢) .

وفي بلاد بنى عامرٍ يجذبه صوت رجل يقول :

أحقاً عبادَ الله أن لست ناظراً إلى قرقرى يوماً ، وأعلامها القبر
كان فؤادى كلما مرَّ راكبٌ جناحُ غرابٍ رام نهضاً إلى وكرٍ
إلى آخر القصيدة ، قال : كان ندى الصوت ، فلما رآنى أوماً إلى فأتيته فقال : أعجبك ما سمعت ؟ فقلت : إى ، والله ، فقال : من أهل الحضارة أنت ؟ قلت : نعم ، فسأله عن نسبه ، وأكرمه ، ولما دعاه إلى الطعام قال الأصمى : إني إلى غير هذا أخرج ! قال : وما هو ؟

قال : تشدنى ، قال أصبُ فإنى فاعل ؟ قال الأصمى : فلقيتُ لقيات وقلت : الوعد ، فقال : ونُعَمَى عين ، وأنشدنى ...^(٤٣) .

(٤١) كتاب الصناعتين ١٠ .

(٤٢) الأمل ٢ : ٦ .

(٤٣) الأمل ١ : ١١٧ - ١١٨ ط دار الكتب سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .

ويذهب إلى الحجاز يؤدي فريضة الحج ، فلا يفوته أن يفيد من رحلته ، ولا يكتفى بسماع اللغة والشعر ، وإنما يتجاوز هذا إلى معرفة أحوالهم ومعاشهم ، وهو يحكى هذا فيقول : (رأيت أعرابية ذات جمال تسأل بنى ، فقلت لها : يا أمة الله ، تسألين ولك هذا الجمال قالت : قدر الله فما أصنع قلت : فن أين معاشكم ؟ قالت : هذا الحاج نسقيهم ونغسل ثيابهم . قلت : وإذا ذهب الحاج فن أين ؟ فنظرت إلى وقالت : يا صلت الجبين ، ولو كنّا نعيش من حيث نعلم ما عشنا) (٤٤) .

ووجدناه مرة أخرى في الحجاز في غير أشهر الحج ولا رغبة له - فيما نرجح - إلا طلب اللغة ، يقول ، هجم على شهر رمضان وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطائف لأصوم بها (٤٥) .

هذه أمثلة تشير إلى زيارته للبادية ، وأخرى مبسطة في بطون الكتب ، كلها تشير إلى أنه كان يجوب البادية ، من نجد إلى الطائف إلى مكة إلى منى ... لا هم له إلا سماع الأعراب واستنشادهم ، وتلمح في كثير منها اصطناع المناشدة والمحاورة والمناقشة ، فإذا انتهى أربه من عامة العرب على هذه الصورة - جلس إلى علماء الحجاز - وأفاد من علمهم ، وسنعرّف بخواصهم بعد قليل .

كانت رحلات الأصمعي إلى البادية مدرسة أمدته بمعالم الحياة فيها ، فاستعان بذلك على فهم الشعر واللغة ، وتصحيح الأخبار ، وردّ كل قول إلى قائله استناداً إلى ما عرفه من طبيعة هذه الأماكن ومن طبائع ساكنيها ، انظره يقول : قرأت على أبي عمرو بن العلاء ، شعر المخبل السعدي (٤٦) ، فلما بلغت إلى قصيدته التي أولها :

ذكر الرباب وذكرها سقم

مرّ فيها ، فلما وصل إلى قوله :

وأرى لها داراً بأغدره السيدان لم يدرس لها رَسْمُ

فقال أبو عمرو : قد رايت هذا ، وكيف يكون هذا المخبل وأغدره السيدان وراء كاظمة ؟ !

(٤٤) العقد ٣ : ٢١٠ .

(٤٥) العقد ٦ : ٢٥١ .

(٤٦) هو أبو يزيد ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عوف من بنى أنف الناقة من نهم ، شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام .

وهذه ديار بكر بن وائل ، ما أرى الشعر إلا لطرفة ! قال الأصمعي : فلم يزل ذلك في نفسى حتى رأيت أعرايياً ، فصيحاً من بكر بن وائل ينشد من هذه القصيدة آياتاً منها :
وتقول عاذلتى وليس لها بغدٍ ، ولا ما بعده علمُ
إن الثراء هو الخلود وإنَّ المرء يكرب يومه العدم
ولئن بنيت إلى المشقر في هضب تقصر دونه العصم
لتنقبزن عني المنية إنَّ الله ليس كحكمه حكم^(٤٧)

وسمع أبا عبيدة ينشد هذا البيت ، وينسبه لحاجب بن زرارة :
شتان هذا والعناق والنوم والمشرّب الدائم في ظلّ الدوم
فلم يرق له هذا ، لأن حاجباً نجدى ، والدوم شجر ينبت بالحجاز ، وفسر الدوم -
بالدائم .

علاقة الأصمعي بعلماء الحجاز :

رأى فريق من العلماء في رحاب الحجاز ، وفي تقربهم من بلد الرسول ﷺ ، وفي بعدهم عن السلطان أمناً لدينهم وديارهم ، فترلفوا إلى الله بالعكوف على قراءة القرآن ، ومذاكرة حديث الرسول ﷺ ، وروايته وإملائه ، وكانت التزعة الدينية هذه هي التزعة الغالبة على علماء الحجاز ، وإن لم يستطع بعضهم أن يتخلّص من فطرته الأصيلة في الشعر واللغة . كان الأصمعي يحب الجزيرة بألواحها ينشد العلم بكل صنوفه وألوانه ، فكان طبيعياً أن يلتقى بهؤلاء العلماء ، يجلس إلى بعضهم الشهر والشهور ، واليوم والأيام ، أو يلتقى بهم التفاء عابراً فيأدهم الرأي والمعرفة :

جلس إلى نافع بن عبد الرحمن^(٤٨) قارئ المدينة ، فلازمه ، وأخذ عليه قراءته ، وأصبح من أوثق العارفين بها ، حتى كان صاحب هذه القراءة في مسجد البصرة ، وأحسب أن الأصمعي قد طال مكثه عند أبي روم حتى تأكدت صلته بعالم آخر كان يجلس إلى نافع ، هو مالك بن أنس .

كان أبو عبد الله مالك بن أنس من علماء المدينة ، وصاحب رواية الحديث فيها ، أخذ

(٤٧) معجم البلدان ١ : ٢٩٤ .

(٤٨) الفهرست ٤٢ طه الرحانية .

قراءة القرآن عن نافع ، وسمع الحديث من الزهري ، ونافع مولى ابن عمر ، وكانت علاقة الأصمعي بمالك علاقة تبادل في المعرفة ؛ إذ يقول صاحب خلاصة تذهيب الكمال : إن مالكا روى عن الأصمعي في جملة من التابعين منهم يحيى بن معين ، ونصر بن علي ، وعمر بن شبه (٤٩) .

ومن الذين جلس إليهم الأصمعي في الحجاز ، وطالت الصحبة معه : سفيان بن عيينة المحدث ، فتوطدت صلته به ، وتعرف بعدد كبير من أصدقائه في مجالسه ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار الأصمعي أنه رثى أحداً من شيوخه بمرثية شعرية غير سفيان ، فأشاد بفضل ، وعدد أقطاب المحدثين ، فقال :

أُمتت مجالسه وحشاً معطلةً من قاطنين وحجاج وعُمّار
من للحديث عن الزهري حين ثوى وللأحاديث عن عمرو بن دينار

وجلس الأصمعي إلى الشافعي ، وكانت له شهرة وسبق في اللغة والشعر : فقد تعلم القرآن صغيراً ، ثم اتجه لطلب الشعر ، وهو يحكى ذلك فيقول :

خرجت من مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها ، وأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأزل بترولهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الأدب والأخبار وأيام العرب ، فمرّ بي رجل من الزبيريين من بني عَمِي ، فقال لي : يا أبا عبد الله ، عزّ عليّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه (٥٠) وقال :

(أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها ...) (٥١) .

وكان أهل الحديث يرون في مسلك الشافعي هذا شيئاً يعدّونه عليه ، وينقلونه بسببه : أشار إلى ذلك مصعب بن الزبير ، فقال : كان أبي والشافعي يتناشدان الأشعار ، فأقى الشافعي على شعر هذيل حفظاً ، وقال : لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث ، فإنهم لا يحتملون

(٤٩) خلاصة تذهيب الكمال ٢٠٧ .

(٥٠) معجم الأدباء ١٧ : ٢٨٦ .

(٥١) تاريخ بغداد ٢ : ٦٣ .

هذا^(٥٢) : كما كانوا يضيّقون بجلالته من أهل الشعر واللغة ، ويستغريون وجودهم في مجلسه . وبلغ بالحسن بن محمد الزعفراني الغضب يوما حتى كاد يطردهم فقال لرجل من رؤسائهم : إنكم لا تتعاطون العلم (يقصد الحديث) ، فلم تختلفون معنا ؟ ، قالوا : نسمع لغة الشافعي . كان الشافعي أحسن من يروى شعر هذيل ، لذلك رحل إليه الأصمعي ، وأعاد على مسامحه ما يعرفه منه ، والأصمعي يثير في كلام له إلى أنه كان يعرف شعر الهذليين ، ولكنه قرأه على محمد بن إدريس رغبة في تصحيحه ، ونص عبارته :

(صحّحتُ أشعارَ هذيلٍ على فتي من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي)^(٥٣) . وتحمل هذه العبارة ما يفيد أن الشافعي حينئذ كان شاباً في مقتبل العمر ، ولعلنا نميل إلى القول بأن الأصمعي لقي الشافعي في الحجاز وإن لم تشر الأخبار عن مكان التقائهما : ذلك أن المتبع لتاريخ الشافعي يعرف أنه ولد في سنة مائة وخمسين من الهجرة ، ولم يأت إلى العراق قبل سنة أربع وثمانين ومائة ، حرّر ذلك الأستاذ مصطفى عبد الرزاق فقال : (والذي تحررنا بالطرق الصحيحة أن قدوم الشافعي أول ما قدم كان سنة ١٨٤ ، وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بستين ، وأنه لقي محمد بن الحسن ، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز^(٥٤)) . نعم كان الأصمعي حينئذ في بغداد ، ولكننا نعتقد أن الشافعي الذي طُلب من قبل الرشيد منهماً ينتظر القتل كرملائه - كان في شغل آخر عن إنشاده أشعار هذيل كما تحمل عبارة الأصمعي (يقال له محمد بن إدريس) إشارة إلى أن أمره لم يكن قد عرف بعد .

كيف تأثر الأصمعي بشيوخه ؟

كان لشيوخ الأصمعي مميزات خاصة انتقلت بعضها إليه بأغلب صورها ، وأحياناً تأثر ببعض منها ، وكان أول المؤثرين فيه أبو عمرو بن العلاء ، ربما لطول الصحبة ، بالإضافة إلى أن الأصمعي كان يحل أبا عمرو ويثق فيه ، فكان يرى رأيه ، ويذهب مذهبه . كان أبو عمرو يُعَدُّ الشعرَ للمتقدمين من الجاهليين والمخضرمين ، ولا يحسن رأيه في المحدثين : فهو يعجب بشعر جرير والفرزدق وأضرابها ، ويعدّهم مؤلّدين بالإضافة إلى

(٥٢) معجم الأدباء ١٧ : ٢٨٦ .

(٥٣) معجم الأدباء ١٧ : ٢٩٩ .

(٥٤) الإمام الشافعي ٢٩ للأستاذ مصطفى عبد الرزاق .

القدامى وهكذا كان الأصمعي يغالب حسه وانفعاله إزاء أشعار المحدثين ، يُقَرُّ لهم بالمقدرة ، ويهتَزُّ لشعرهم ، ولكنه كان أمام مبدأ ورثه عن أستاذه ، يقرأ شعر بشار فيقول : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم^(٥٥) ، ويسمع من التوزي شعر السيد الحميري فيطرب له ، ويستعيده من التوزي ، ثم يقول : قَبَّحه الله ! ما أسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه ولولا ما في شعره - ما قدمت عليه أحداً من طبقته^(٥٦) أو يقول : ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء ! والله لولا ما في شعره من سبِّ السلف ما تقدّمه من طبقته أحد^(٥٧) وفي هذه الأحكام تراه إذا أراد أن يرفع صاحبه قرّنه بالقدامى لبيان هذا الوجه من التوثيق ، ثم يضعه موضعاً من أهل طبقته . وعلق يوماً على قول ابن هرمة :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

بقوله : أما ترون كيف قال ؟ والله لو قال هذا حاتم ما زاد ، ولكان كثيراً ، ثم يقول : ما يؤخره عن الفحول إلا قرب عهده . وهكذا تراه يضيف ميزاناً جديداً إلى موازين النقد ، هو عامل القدم ، تأثراً بأستاذه أبي عمرو بن العلاء .

وكان أبو عمرو يرى أن الأصل في الرواية هو السماع عن العرب ، ولا ينساق إلى ما ذهب إليه الآخرون من الالتجاء إلى القياس منذ نادى به ابن أبي إسحق الحضرمي ، وكذلك كان الأصمعي لا ينشط للمقاييس ، ولا للحكاية التعليل ، وإنما يتوفر على ما يروى ويحفظ^(٥٨) ، ولهذا هاجم ابن جني طريقه أبي عمرو بن العلاء والأصمعي واختار لهذا الهجوم حديثاً لأبي عمرو بن العلاء برواية الأصمعي . يقول أبو عمرو :

سمعتُ رجلاً من اليمن يقول : فلان لغوب ، جاءته كتابي فاحتقرها . فقلت له : أنقول : جاءته كتابي ؟ قال : نعم ، أليس بصحيفة ؟

وعقّب ابن جني على هذا الخبر بقوله : « أفترأى تريد من أبي عمرو وطبقته ، وقد نظروا وتدرّبوا وقاسوا وتصرفوا أن يسمعوا أعرابياً جافياً غفلاً يعلل هذا الموضع بهذه العلة . ويحتج لتأنيث المذكر بما ذكره ، فلا يحتاجوا هم لمثله ، ولا يسلكوا فيه طريقته فيقولوا : فعلوا كذا وكذا ، وصنعوا كذا لكذا وقد شرع لهم العربي ذلك ، ووقفهم على سمته وأمه » ؟^(٥٩)

(٥٥) الأغاني ٣ : ١٤٣ ط دار الكتب . (٥٨) الخصائص ١ : ٣٦١ ط دار الكتب .

(٥٦) الأغاني ٧ : ٢٣٢ ط دار الكتب . (٥٩) الخصائص ١ : ٣٤٩ .

(٥٧) الأغاني ٧ : ٢٣٦ .

وكان أبو عمرو يكره الكلام في القدر ، وقد تجلّى هذا عندما عرضنا موقفه من معمر وقد سأله عن قوله تعالى : (وما كنا له مقرنين) ، ومن قول أبي عمرو له (حسبك قتادة ، فلولا كلامه في القدر ... ما عدلت به أحداً من أهل دهره)^(٦٠) .

وكذلك كان الأصمعي يكره الكلام في القدر : اتهمه الجاحظ بالمناوئة لولا أن رده عباس بن رستم بقوله : لا والله ، ولكن نذكر حين جلست إليه - تسأله ، فجعل يأخذ نعليه بيده وهي مخصوفة بجديد ويقول : نعم قناع القدرى ، نعم قناع القدرى فعلمت أنه يعينك^(٦١) .

وسئل أبو عثمان المازني : لم قلت روائتك عن الأصمعي ؟ قال : رُميت عنده بالقدر والميل إلى الاعتزال .

وكان عبد الملك يقرن المتكلمين في القدر بشارى الخمر ، وله في هذا كلمة مأثورة . (ثلاثة تحكم لهم بالمرء حتى يعرفوا : رجل رأته راكباً ، أو سمعته يعرب ، أو تشممت منه رائحة طيب ، وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل ، أو رأته يتكلم في مصر عري بالفارسية ، أو رأته على ظهر الطريق يتنازع في القدر)^(٦٢) .

ولما كان أبو عمرو بن العلاء سَيِّئاً يلترم بآثار السلف ، ويتبع عن الأهواء والأحزاب والفرق - كان الأصمعي كذلك ، وأصبحا يُذَكَّران معاً ضمن أربعة من الأجلاء اشتهروا بذلك : يقول الخطيب البغدادي رواية إبراهيم الحري : (كان أهل البصرة أهل العرية منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة ، فإنهم كانوا أصحاب سنة : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والأصمعي) .

وتأثر الأصمعي بشيخه في جانب التحرج والتأثم والتزام الدقة فيما يرويه أو يحكيه ، وكان أبو عمرو يتحرج من الكذب أو شبهته فأحرق في أخريات أيامه ما جمع من علم ، وما دَوَّنَه في كتب خشية أن يكون فيها غير الصحيح ، فيحمل وزر ما كتب وكذلك كان الأصمعي : فإنه وإن لم يحرق كتبه - كان يأمر ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله بكتابة ما ينتهى إلى ثقة

(٦٠) وفیات الأعيان ٣ : ٢٤٨ .

(٦١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

(٦٢) عيون الأخبار ١ : ٢٩٦ .

الأصمعي ، وأن يُجَحِّفَ^(٦٣) ما عداه - على حد تعبيره .

وبالجملة فإن أبا سعيد كان صورةً قريبةً من أبي عمرو بن العلاء سواء في الناحية العلمية أو الناحية الروحية ، ويبدو أن الأصمعي قد تشبع بترعة أبي عمرو ، فلم يتأثر بغيره من العلماء إلا تحصيله لما عندهم ، فقد علمنا أنه جلس طويلاً ، وسمع كثيراً من خلف الأحمر ، ولكنه لم يتأثر بطريقة : كان خلف يعرف طريقة الشعراء القدامى ومذاهبيهم في القول ، فينحلهم شعرا من عنده أو ينسب لهم ما لم يقوله ، لم يتأثر الأصمعي بشيء من هذا ، ولم يعرف عنه أنه غير رواية الشعر إلا في بيت واحد سنشير إليه بعد . أما قول الشعر ينسبه للجاهليين فكان الأصمعي بمنجاة عن ذلك بطبيعته ، إذ كان لا يقول الشعر إلا قليلاً ، ولم تكن له مقدرة خلف ، وهو إن قال البيت والبيتين لا يصل إلى مرتبة الشعراء .

حلقة الأصمعي بالبصرة :

عرفنا بالبيئات العلمية التي طرقها الأصمعي في سبيل الطلب والتحصيل ، فتى جلس ليعلم ؟ إننا لا نستطيع أن نحدد هذا الزمن تحديداً دقيقاً إلا من خبر رواه السيوطي يقول فيه : إن القراء كانوا يحضرون إلى حلقة الأصمعي لأخذ قراءة نافع عليه برغم حدائمه^(٦٤) . وهناك من الأسباب ما يجعلنا نقف أمام هذا الخبر مرتابين : فلقد كان صاحب هذه القراءة على قيد الحياة ، ويمارس نشاطه في المدينة حتى سنة تسع وستين ومائة ، وجلس الأصمعي بالبصرة ليقرئ الناس قراءة نافع شيء يدعو إلى تقلاب الأمر على وجوهه ؛ إذ كان من الممكن لهؤلاء الطلاب أن يتوجهوا برغبتهم إلى صاحب القراءة بالمدينة إلا إذا كان الأصمعي قد أجزى بذلك من صاحبها ، وأنه أصبح نائباً عنه في البصرة ، وهذا لم يرد به خبر ؛ كما أن السيوطي لم يذكر المصدر الذي نقل عنه .

ومهما يكن من أمر فحلقة الأصمعي اشتهرت بدرس الشعر ، والنظر في معانيه ، ودرس اللغة والغريب ، والأخبار في هذا متعددة ، وتكاد تجمع على أن الأصمعي انتهى في ميدانه هذا إلى درجة التخصص : فالكسائي مثلاً يقول في رسالة له : لست أعرض لك في الشعر

(٦٣) يجحفل : يرمى .

(٦٤) الزهر ٢ : ٢٦١ ط السعادة .

والمعاني والغريب....^(٦٥) ويقول المبرد: كان الأصمعي أسد الشعر والغريب والمعاني^(٦٦).

وانتهت الرياسة في هذا الميدان إلى أبي زيد سعيد بن أوس ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، في مطلع النصف الأخير من القرن الثاني في مسجد البصرة ، وصار أمر اللغة والنحو والشعر متنازعا بينهم ، ولكل واحد منهم زاوية برز فيها ونبع أكثر من صاحبه والمبرد يحمل رأيه فيهم بقوله :

(كان أبو زيد الأنصاري صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان الأصمعي بحراً في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية)^(٦٧) . واستطاع أبو زيد أن يحصل على صداقة زميله ، ويفرض عليهما احترامه ؛ كان الأصمعي يأتي إلى حلقة أبي زيد ، فيقبل رأسه ، ويثنى عليه قائلاً : هذا عالمنا ومعلمنا منذ كذا من الزمن^(٦٨) بالرغم مما كان بينهما من اختلاف في الرأي في المجال اللغوي حين يتفق أبو زيد وأبو عبيدة ويتفرد الأصمعي بالخلاف لما عرف عنه من التضييق ، ولكن الأمر كان على غير هذا بين معمر وأبي سعيد . فأحياناً يتلازمان ، ويدخلان المسجد على اتفاق ومحبة يتجادبان النكات والملح ، وأحياناً تشتد بينهما العداوة والحصومة ، فيقف الأصمعي على باب المسجد قائلاً : انظروا لا يكون هنا ! وانقسم الناس في أمرهما بسبب من عقيدتهم أو أهوائهم . فإسحق الموصلي بدأ مؤازراً للأصمعي ويقول فيه : عجائب الدنيا معروفة معدودة منها الأصمعي !^(٦٩) ويقول : ما رأيت أحداً قط أعلم بالشعر من الأصمعي ، ولا أحفظ لجيده ، ولا أحضر جواباً منه ، ولو قلت : إنه لم يك مثله - ما خفت كذباً^(٧٠) ويروى عنه صاحب الوفيات قوله : لم أر الأصمعي يدعى شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه^(٧١) .

(٦٥) إنباه الرواة ٢ : ٢٧٢ .

(٦٦) أخبار النحويين البصريين ٥٨ .

(٦٧) إنباه الرواة ٢ : ٢٠١ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٤١٤ .

(٦٨) منذ عشرين سنة في رواية ، وخمسين سنة في رواية أخرى .

(٦٩) الزهر ٢ : ٤٠٤ .

(٧٠) الموشع ٢٩٧ .

(٧١) وفيات الأعيان ٣ : ٣٤٤ .

كان هذا رأى إسحق الموصلي حين كان يأخذ العلم عن الأصمعي ، ويخرج من حلقته يعدد مآثره وأفضاله ، وظل أمره على هذا النحو حتى رحل الأصمعي إلى بغداد ، فتغير رأيه فيه على النحو الذى سنشير إليه ، بعد .

أما أبو نواس فكان إلى جانب أبي عبيدة على طول الخط ، ولم يحسن رأيه فى الأصمعي فى يوم من الأيام ، ونحن لا نستطيع إغفال رأى رجل كأبي نواس الذى شارك فى العلوم الإسلامية والدينية واللغة والشعر وخرج منها بقسط كبير^(٧٢) إلا أن يكون رأيه عن هوى ورغبة فى مساندة أبي عبيدة لاتفاقها على كراهية العرب :

كان أبو نواس عندما يفاضل بين الرجلين - كان بصيب مميزاتهما حقيقةً ، ولكن فى أسلوب يقلل من شأن الأصمعي ، فهو يعلم أن أبا عبيدة جماعٌ للعلم ، ولكنه لم يبرز القدرة على التعبير حتى إذا قرأ البيت من الشعر لم يُقِمَّ إعرابه^(٧٣) على تقيض الأصمعي الذى كان أعذب من تحدث وحكى : فكان أبو نواس يعبر عن ذلك بقوله : كان الطلبة إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر فى سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر فى سوق البعر !^(٧٤) وكان الناس يعرفون ميله إلى أبي عبيدة ، وأنه يشأ الأصمعي ويهجو . قيل له ما تقول فى الأصمعي ؟ قال : بلبل فى قفص ! قيل فما تقول فى خلف الأحمر ؟ قال : جمع علم الناس وفهمه قيل فما تقول فى أبي عبيدة ؟ قال : ذاك أديم طوى على علم !^(٧٥) ، وظل هذا رأى أبي نواس لم يغيره حتى بعد سفره إلى بغداد ، وهناك قيل له : قد أشخص أبو عبيدة والأصمعي إلى الرشيد ، فقال : أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه من سفره قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته^(٧٦) .

والحقيقة أن العلاقة بين أبي نواس وأبي عبيدة كانت علاقة ود وصداقة منذ كانا فى البصرة : كان أبو عبيدة يحتل من صاحبه ما لا يحتمله من أى شخص آخر ، وهو الرجل الذى لا يصبر على أذى أو مشاكسة ، كان أبو نواس يضع له نوعاً من الحلوى يسيل إذا اشتد الحر على أسطوانة أبي عبيدة فلا تلبث أن تسيل على قفاه ! ويكتب أوراقاً يغمز فيها أبا عبيدة

(٧٢) انظر أخبار أبي نواس : ١ . ٦ .

(٧٣) معجم الأدباء ١٩ : ١٥٦ .

(٧٤) معجم الأدباء ١٩ : ١٥٥ .

(٧٥) أخبار أبي نواس : ١ : ١٥٤ .

(٧٦) إنباه الرواة ٢ : ٢٠٦ .

ويوزعها في مجلسه إلى أن تصل إليه ، وفيها ما فيها من اتهام وتهكم فكان أبو عبيدة يقبل منه كل هذا ، كما كان رأيه في أبي نواس لا يقل عن رأي أبي نواس فيه ، وكأنها يتبادلان الجمالة فيقول : ذهبت اليمن بجيد الشعر في قديمه وحديثه - امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين أويقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس ، وحسان بن ثابت ، وأبو نواس أويقول : أبو نواس في المحدثين مثل امرؤ القيس في المتقدمين : فتح لهم هذه القطن ، ودلهم على المعاني ، وأرشدتهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه ^(٧٧) .

كان طبيعياً أن تنتج هذه الصداقة وهذا الإلف بين الرجلين رأى كل منهما في صاحبه واتفاقهما على الأصمعي

أما خلف الأحمر وقد طالبت الصحبة بينه وبين الأصمعي ، وأتيح له أن يعرف الكثير عنه وأن يزن علمه - فإنه كان يرى فرق ما بين الأصمعي وأبي عبيدة إذا كان مجال المفاضلة بينهما هو الشعر : تراه ينصح كيسان بقوله : ويلك ... ! الزم الأصمعي ، ودع أبا عبيدة ، فإنه أفرس الرجلين بيت شعر ^(٧٨) .

ولنا أن تتمثل في مسجد البصرة صورةً لثلاث حلقات : أبو زيد ومن حوله طلاب اللغة والنحو ، وأبو سعيد صاحب الغريب والشعر واللغة ، وأبو عبيدة وقد برز في الأنساب والأخبار وأيام الناس .

تلامذة الأصمعي :

إذا تمثلنا الأصمعي على هذه الصورة التي أدركنا كثيراً من جوانبها - أول راوية للشعر بعد خلف في الترتيب الزمني في البصرة ، ومن أساطين اللغة وغريبها بخاصة . ثقة فيما يرويه ، حلو الحديث ، يدفع الملل عن طلابه بالنادرة الفكاهة ، أو يعلق على تصحيف أو خطأ بهكم لطيف - كان من الطبيعي أن تكون حلقة عامرة بالطلاب ، وبمجموع البصريين الذين يختلفون إلى المسجد لسماع هذا النوع من العلم ، ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا : إنه لم يخرج من البصرة عالمٌ باللغة والشعر والغريب في عصر الأصمعي إلا جلس إليه ! بل كان من مفاخر الرجل منهم أن يقول في ملأ من الناس : أخذت عن الأصمعي ! ولقد رد أبو العيناء على الخليفة

(٧٧) أخبار أبي نواس : ١ : ٥٢ .

(٧٨) زهر الآداب : ١ : ٢٥١ .

المتوكل حين اتهمه بأنه رافضي بقوله : وكيف أكون رافضياً وبلدى البصرة ، ومنشئ في مسجدها الجامع ، وأستاذى الأصمعي ! (٧٩) .

وحضر طلاب الأصمعي أمر عسير ، وقد أشار الخطيب البغدادي إلى بعضهم ، فذكر ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله ، وأبا عبيد القاسم بن سلام ، وأبا حاتم السجستاني ، وأبا الفضل الرياشي ، وأحمد بن محمد البيهقي ، ونصر بن علي الجهضمي ، ورجاء بن الجارود ، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه ، ومحمد بن إسحق الصاغاني ، ويعقوب بن سفيان القسوي ، وبشر بن موسى الأسدي ، وأبا العباس الكندي في آخرين (٨٠) : وربما عني الخطيب البغدادي في هذا الحصر بأمر الذين رووا عنه الحديث ، وفي كتب الأدب جمع كبير من الطلاب نكتني بالتعريف بأشهرهم مبتدئين بأولئك الذين تأثروا بالأصمعي أكثر من غيره ، أو جاءوا يتمون علومهم عليه .

من هؤلاء الطلاب أبو حاتم السجستاني ، لازم الأصمعي مدة طويلة يحبه ، ويحله ، ويقدر علمه ، وكان موقفه منه كموقف الأصمعي من أبي عمرو بن العلاء . والذي بأيدينا من كتب الأصمعي يكشف لنا عن مدى هذه الصلة ، فكلها أو جلها مروية عن أبي حاتم . تلقى أبو حاتم عن الأصمعي اللغة والشعر ، وكان حظه من النحو - كحظ أستاذه - قليل : فلم يك حاذقاً فيه ، وكان إذا اجتمع هو وأبو عثمان المازني في دار عيسى بن جعفر الهاشمي تشاغل أو بادر بالخروج خوفاً من أن يسأله عن مسألة فيه . وكان أبو حاتم جماعاً للكتب ، ويتجر فيها ، توفي سنة خمس وخمسين ومائتين (٨١) .

ومن طلابه عبد الرحمن بن عبد الله وهو ابن أخي الأصمعي ، ويبدو أنه أوقف نفسه على مجرد الرواية عن عمه ، وكتب التراجم تشير إليه تحت هذه الصفة ، وأغلب الأخبار التي نسبت إلى الأصمعي مروية عن عبد الرحمن ، ولقد استقر ذلك في علم الناس حتى كانت عبارة (عبد الرحمن عن عمه) قد أدركها الذبوع والانتشار نعتي عبد الرحمن بن عبد الله عن أبي سعيد الأصمعي ، استغنى عن التطويل لعلم العامة بها كعلم الخاصة . ويقولون عن أحمد بن حاتم الباهلي - أنه صاحب الأصمعي ، وأحياناً يذكرونه على أنه

(٧٩) زهر الآداب ١ : ٢٥١ .

(٨٠) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

(٨١) انظر إنباه الرواة ٢ : ٥٩ ، ومعجم الأدباء ١١ : ٢٦٢ ، وبنية الوعاة ٢٦٥ .

ابن أخته - كان قوى الصلة بالأصمعي . فروى كتبه . واطمأن لذلك أبو سعيد فقال : ما يصدق على إلا أبو نصر^(٨٢) فكان الذين يطلبون علم الأصمعي يذهبون وراء أحمد بن حاتم وربما احتالوا على تصيد هذه الكتب منه ونسخها : يقول حمزة الأصفهاني (...) ولما أقدم الخطيب بن أسلم أبا محمد الباهلي صاحب الأصمعي إلى أصبهان . نقل معه مصنفات الأصمعي وأشعار شعراء الجاهلية والإسلام مقروءة على الأصمعي . وكان قدومه أصبهان بعد سنة عشرين ومائتين . فأقام أشهراً . ثم تاهب منها للحج ، فدخل إلى عبد الله بن الحسن ، وسأله أن يدلّه على رجل يسلم إليه دفاتره إلى أن يرجع . فقال له : عليك بمحمد بن العباس ، وكان مؤدب أولاد عبد الله بن الحسن مقبول القول ، فسلم إليه الباهلي دفاتره وخرج . فأنسخها محمد بن عبد الله الناس ، فقدم الباهلي وقامت قيامته ... !^(٨٣) .

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام من الذين جلسوا إلى علماء البصرة . فأخذ عن أبي زيد ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي محمد اليزيدي ، ثم تزود من الكوفيين ، فأخذ عن ابن الأعرابي ، وأبي زياد الكلالي الأعرابي . ويحيى بن سعيد الأموي وغيرهم ، وكان جامعاً مدوناً أكثر منه راوية . فقبل في وصف كتابه (الغريب المصنف) : إنه اعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بني هاشم جمعه لنفسه ، وأخذ كتب الأصمعي فبوب ما فيها . وأضاف إليها شيئاً من علم أبي زيد . وروايات عن الكوفيين^(٨٤) ترك من الكتب بضعة وعشرين كتاباً في القرآن والحديث وغيره والمعاني والشعر .

ومن الذين أتموا علومهم على الأصمعي صالح بن إسحق الجرهمي ، أخذ عنه اللغة ، ثم انجبه إلى النحو فتزود من سعيد بن مسعدة الأخفش ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، وألف فيه كتاباً يعرف بالفرخ ، وقرأ ديوان المذليين على الأصمعي .

ومنه أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني : سأله الأخفش : أتلتزم الأصمعي ؟ قال : ما أفارقه قال : أتتلم منه النحو ؟ قال : لا ، ولكن أتتلم منه المعاني واللغة والشعر^(٨٥) . وكان أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي كثير الرواية عن الأصمعي ، وكان يحفظ كتبه

(٨٢) معجم الأدباء ٣ : ٢٨٤ .

(٨٣) معجم الأدباء ٢ : ٢٨٥ .

(٨٤) معجم الأدباء ١٦ : ٢٥٥ .

(٨٥) المصنف لابن جني ٣ : ٣٢٨ ط الحلبي سنة ١٩٦٠ .

وكتب أبي زيد ^(٨٦) .

يضاف إلى هؤلاء عامة الرجال الذين نصادفُ أسماءهم في كتب اللغة والأدب الذين رويوا عن الأصمعي ، ويضيق بهم الحصر والتعريف وظل علم الأصمعي ينتشر في الأجيال على أيدي طلابه هؤلاء : فقال أبو بكر الأبهري المالكي : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي ، فكان يقول في واحد : حدثنا الرياشي ، وفي آخر : حدثنا أبو حاتم ، وفي آخر : حدثنا ابن أخي الأصمعي ^(٨٧) .

وفي حلقة الأصمعي وجه آخر من النشاط يتمثل فيما كان شبَّ بينه وبين زملائه من خصومات علمية ، فكل بارز في مجتمع لا بد أن تتباين فيه الآراء ، وتعدد فيه وجهات النظر ، ولا تتحقق المقارنة بين اثنين إلا يسمو أحدهما بالإضافة إلى دنو الآخر ، وكان من الطبيعي أن يعيش الأصمعي هذه الفترة والناس من حوله بين مؤتق ومتهم ، ومادح وقادح : إما عن عقيدة واقتناع ، وإما عن مكابرة وهوى ، بذلك على ذلك هذه المساجلات التي نقدم لك جانباً منها :

تلازم الأصمعي ومعمربن المشي حين كانا يطلبان العلم ، ثم بلغا ذروة التحصيل معاً ، فخرج الفارسان إلى الناس في عنان واحد ، وحملوا معاً أصول الرواية ، فلم يكن يذكر أحدهما إلا يذكر الآخر إلى جانبه ، ولا يطلب من أحدهما علم إلا يستكمل من صاحبه ، والأمر في عصبيتها مختلف : فالأصمعي عرّب يمدّه لسانه بلغة قومه ، طيّعة سليمة ، وتعدّه عصبيته بنصرة الفتح ، وأبو عبيدة من الموالي لا يساعده لسانه على إقامة الكلام ، ولاحظ غرْبته عن العرب ، فعكف على دراسة آثارها وأنسابها وأيامها ، واستخرج من كل أولئك مثالبها ومفاخرها أيضاً ، والأمر في المعتقدات مختلف كذلك : فالأصمعي سُني متحرّج يحرص على آثار السلف ، ويتمسك بالترعة النقليّة ، وأبو عبيدة متحرر يقرأ ، ويجمع ، ويبيّ ثم يهندي بذوقه وعقله ، كما يعمل المتكلمون من أصحاب الترعة العقلية ، فكانت حياتها وعلاقتها العلمية انعكاسات لكل هذا .

لم يكن للأصمعي في الخصومة صولة ولا جولة ، وهو يشعر بتكامل شخصيته . فجمهرة

(٨٦) أخبار النحويين البصريين ٦٨ .

(٨٧) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧ .

العلماء ثوثقه وتثنى عليه ، ويختارونه إذا كان لابد من واحد من الرجلين ؛ كما فعلوا عند استقدامها إلى بيت الخلافة ، فلم يبادى أبا عبيدة بخُصومةٍ ، ولم يقع فيه ، بل كان يتجنبه ويتجنب لقاءه ، وربما فضّل عدم دخول المسجد ، لأن أبا عبيدة فيه ! وكل ما يُعرف من هذا الوجه أنه عاب أبا عبيدة أن وضع كتاب المجاز في القرآن ، وفسره برأيه^(٨٨) ، وكانت وسيلته في التعبير عن رأيه هادئة مهذبة لاشتم فيها ولا سباب ، وكل ما قاله بعد أن قرأ من كتابه قول الله تعالى : (ألم - ذلك الكتاب لا ريب فيه) أى لا شك فيه - قال الأصمعي : من

يلدى أبا عبيدة أن الريب هو الشك ؟ وما عدا هذا فالأصمعي مدافع لا مهاجم !
والذي تراءى لنا أن أبا عبيدة لم يجد فرصة للنيل من الأصمعي إلا اغتتمها : كان يسخر منه ومن سعة حفظه ، ويقول في أسلوب ساخر : (اسألوا هذا الذي يزعم أنه ما قرأ شيئاً واحتاج أن يعود إليه !) وذلك في سياق قصتها المشهورة مع الحسن بن سهل عندما أخذ الأصمعي بعيد من ذاكرته ما وقع به الحسن .

وعندما ألقى على مسامع أبي عبيدة - أن أبا الأصمعي كان يساير الأمير سلم بن قتية - استشاط أبو عبيدة غضباً وقال : والله ما ملك أبو الأصمعي قط دابة إلا في ثوبه وكان لا يكتفى بذمه على أنه من باهلة ، بل كان يغرق في تهكمه ويقول : إنه دعى حتى في هذه النسبة .

وكان المفضل الضبي من شيوخ الكوفة ، وأكبر من الأصمعي سناً ، وله مكانه في بيت العباسيين ، وتصادف أن جمعه مع الأصمعي مجلس لسليمان بن علي الهاشمي - وقيل جعفر بن سليمان - في البصرة ، فأنشد المفضل قول أوس بن حجر :

وذات هدمٍ عارٍ نواشُرُها تُصِيتُ بالماءِ تَوَلَّباً جدعا^(٨٨)
فجعل الدال معجمة وفتحها ، وصحف وذهب إلى (الإجذاع) فقال الأصمعي : تولبا جدعا - الدال مكسورة - وأراد تقريره على الخطأ ، فرفض المفضل وقال : هكذا أنشدته ! ودارت اللجاجة بين الرجلين كلٌّ يؤكد رأيه ، وعلا صوت المفضل ، فقال له الأصمعي : لو نفخت بالشبور لم ينفعك ! تكلم بكلام النمل وأصيب ، فرأى سليمان بن علي أن ينقل الخلاف إلى التحكيم ، واتفقوا على غلام من بني أسد ، فأحضر ، وعرضا عليه ما اختلفوا فيه ، فقال بقول الأصمعي ، قال المفضل : وما الجدع ؟ ، قال الأصمعي : هو السيئ الغذاء ، وهكذا

هو في كلامهم ، ومنه قولهم : أجدعته أمه إذا ساءت غذاءه^(٨٩) .
وتعدت الخصومة بين المفضل والأصمعي إلى ابن الأعرابي وكان تلميذ المفضل وربيّه .
وتصادف أن كان الأصمعي في بيت قريبه سعيد بن سلم الباهلي ، وأخذ في مناقشة ولده ، فلما
استنشده الشعر قال الابن :

سمين الضواحي لم تثرقه ليلةً وأنعم - أبكارُ الهوم وعوثها
وأنشد ليلة بالضم ، فسأله الأصمعي عن أستاذه قال : رجل يدعى ابن الأعرابي ،
فاستحضره وخطأه ، لأنه رفع (ليلة) ، وكان يجب أن تنصب على الظرفية ، يقول : لم تثرقه
أبكارُ الهوم وعوثها ليلةً من الليالي - وأخذ في مناقشة ابن الأعرابي ليسخر منه أمام تلميذه
قائلاً : إذا كانت الليلة مرفوعة بالفعل فأى شيء يرفع أبكار الهوم وعوثها ؟^(٩٠) وكان لهذه
الحادثة أثرها في نفس ابن الأعرابي ، فكان يقول دائماً : (إن الأصمعي وأبا عبيدة لا
يُحْسِنَان شيئاً) وهذا حكم جائر كره بعض الناس في علم ابن الأعرابي : قيل لأبي زيد
الإقليدي : لِمَ لَمْ تَأْتِ ابن الأعرابي ؟ قال : بلغني أنه يستنقص الشيخين : يعني الأصمعي
وأبا عبيدة^(٩١) .

ورأى ابن الأعرابي صادر عن خلاف ومكابرة : فلقد كان يعرف قدر الأصمعي ،
ويحرص أشد الحرص على الإفادة من علمه وتبج مروياته والأخذ برأيه : أشار إلى ذلك أبو
حاتم السجستاني فقال : كان الأصمعي يأتي سعيد بن سلم ، وابن الأعرابي مؤدبٌ لولده ،
فيفارق المجلس ، ويسأله سعيد بن سلم الإملاء على ولده فيفعل ، فإذا زال الأصمعي خرج
ابن الأعرابي فيقول : أعرضوا عليّ ما أفادكم الباهلي ، ثم يكتبه !^(٩٢) .

في مثل هذه الخصومات كان العلماء يزيّف بعضهم بعضاً ، ويتلمّس كلٌّ منهم سقط
الآخر ، وكان تمام الواحد منهم أن يكون بمنأى عن الخطأ لا يعزب عنه شاردة ولا واردة ،
فأخذت المعادة تنطرق إلى أكثر الناس ثقة ، حتى الأصمعي هذا العالم المتحرج ، وهو يعترف
في أخريات أيامه بأنه كان على غير الحق في مناقشته مع سيويوه ، وأنه غلبه بلسانه :

(٨٩) نزّه الألبا ٦٨ .

(٩٠) الضواحي : ما بدا من الجسد ، وأنعم : أي وزاد على هذه الصفة ، عوثها : همها ، المزهر ٣ : ٣٢٢ .

(٩١) طبقات الزبيدي ٢١٣ .

(٩٢) طبقات الزبيدي ٢١٤ .

وإذ رأى الأمراء وأصحاب المجالس هذه الظاهرة بين العلماء - وكانوا بدورهم مفتونين بسماع هذه المحاورات - هيئوا لهم أسباب الخصومة والمنافسة ، وأعدوا لهم حكومات من الأعراب كالذى كان بين الكسائي وسيبويه حول المسألة الزنبرية ، وبين الكسائي والأصمعي في مجلس الرشيد حول قول القائل :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً

وكالذى كان بين الأصمعي وسيبويه ، إلى غير ذلك . وكانت شهادة المحكمين ليست خالصة لوجه العلم غالباً . وإنما تنحرف إلى هذه الجهة أو تلك مرضاة للأمير أو صاحب المجلس إذا عرف هواه وميله . وهم في سبيل التشنيع على الأصمعي كانوا يرجعون إلى بعض ما كان يدور في حلقات الدرس ، ويتعلقون بنادرة أو حادثة يتداولونها في المجالس كسقطعة من سقطاته . ومن هذا ما أشاعوه أن رجلاً كان يحضر مجلس الخليل بن أحمد ، ليأخذ علم العروض ، فلم يوفق ، وأراد الخليل أن يصرفه عن هذه الغاية ، فلمح له بذلك ، وألقى له هذا البيت ليقطعه :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فقطن إلى ذلك ولم يعاود مجلسه روى هذا الخبر ابن خلكان^(٩٣) دون أن يشير إلى الأصمعي .

أما ابن جني فقد ذكر الخبر منسوباً إلى الأصمعي في صراحة^(٩٤) ، ولكن الذى نعرفه ونميل إلى القول به أن الأصمعي لم يكن جاهلاً بالعروض ، ونحن لا ندافع عن الأصمعي ، ولا نستكثر من ذكر مواهبه ، ولا نعرض لقرب فهمه أو بعده ، فربما كان الفهم لا يؤثر تأثيراً مباشراً في المهبة السمعية التى يتطلبها العروض ؛ وإنما نجد خبراً يهتم فيه الرشيد باستدعاء الأصمعي ؛ ليمتحن جاريته له . ويقول في خطابه إليه : (يا عبد الملك . وجهت إليك بسبب جارتين أهديتا إلي ، وقد أخذتا طرفاً من الأدب أحببت أن تبور ما عندهما ، وتشير علىّ فيها ؛ قال الأصمعي : وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصرتا)^(٩٥) .

(٩٣) وفیات الأعيان ١ : ٢٥٤ .

(٩٤) الخصائص ١ : ٣٦٢ .

(٩٥) تاريخ بغداد ١ : ٤١٣ .

وليس للأصمعي أن يمتحن في العروض إذا كان هو في حاجة إليه ، وكان يستطيع أن يبتعد عن سؤالها فيه .

وفي خبر آخر ترى الأصمعي يجعل العروض أحد الأصول الهامة التي يجب على الشاعر أن يأخذ نفسه بتعلمها ليكون فعالاً ، وهذا كلام لا يصدر عن رجل يجهل العروض . ولكن رفض التصوص لوجود أخرى تعارضها في المظهر أمر يأباه البحث العلمي ، ويتحتم - والحالة هذه - التعليل لهذا التناقض ، وافترض الفروض حتى يسكن الرأي عند وضع معين ترتاح إليه .

من هذا - أن الخليل بن أحمد ألف كتابين في العروض : أولهما : سهل الاستيعاب بين واضح وسماء المثال ، أوضح فيه بحور الشعر وأورد أمثلة لكل بحر من الشعر الجاهلي .

والكتاب الآخر : وهو كتاب الفرش - يشتمل على أصول القواعد التي انتهى إليها في السكون ، والتحريك ، والأماكن التي تقبل الزحاف والعلل ، والأماكن التي يستكره فيها ذلك ، إلى آخر ما جاء من القواعد المعقدة التي لم يستطع كثير من العلماء الملازمين للخليل أن يعرفوها من أمثال سيبويه ، وقد يكون الأصمعي من الذين استوعبوا الكتاب الأول ، ففهم البحور وتفاعيلها ، ووقف عند الكتاب الآخر : إما لعجزه فعلاً ، وإما لعدم حاجته للتخصص فيه .

أما صاحب الحملة عليه بعد أبي عبيدة فهو إسحق بن إبراهيم الموصلي - وكان كما قدمنا - من أخلص تلاميذه ، وأكثرهم عرفاناً بفضله ، ويقول كما يحدثنا ابنه : ما رأيت أحداً قط أعلم بالشعر من الأصمعي ، ولا أحفظ لجيده ، ولا أحضر جواباً منه ! ولو قلت : إنه لم يك مثله - ما خفت كذباً : لقد استأذن عليّ يوماً وعندى أخ للعاني الراجز ، فلما دخل عبث به أخو العاني فقال : من هذا ؟ أهو الباهلي الذي يقول :

فما صفحةٌ مأدومةٌ يا هالةُ بأطيب من فيها ولا أقط رطب

فقال له قبل أن يستم كلامه : هو على كل حال أصلح من قول أخيك العاني :

يارب جارية حوراء ناعمة كأنها عومةٌ في قلب راقود

قال : فقلت له : أكنت أعددت هذا الجواب ؟ قال : لا ، ولكن ما مرّني شيء قط إلا

وأنا أعرف منه طرفاً^(٩٦) .

وفي مرة أخرى يقول : لم أر الأصمعي يدعى شيئاً من العلم ، فيكون أحد أعلم به منه^(٩٧) .

كان هذا هو رأى إسحق بن إبراهيم الموصلي يوم كان يأخذ العلم عن الأصمعي ، فلما دخل بغداد وكان الموصلي من شعراء الرشيد ، وصاحب مجلس الطرب عنده ، وكان بهذه الصفة يغترف من مَنَح الخليفة وهباته ، فما هو إلا أن شاركه الأصمعي ، فأصبح غريمه في صيد الدراهم حتى انضم إسحق إلى أبي عبيدة وأبي نواس ! وكان إسحق على رأس هذا الثلاث الشعوي ، فزَيَّن للخليفة أن الصنعة لا تجود عند الأصمعي لبخله وتقتيره على نفسه وأن أبا عبيدة أكثر منه جمعاً للعلم ومعرفة به وما كادت الأمور تتغير في البلاط العباسي بعد مقتل جعفر

بن يحيى حتى استطاع إسحق أن يقنع الفضل بن الربيع بذلك ، وكتب إليه :

عليك أبا عبيدة فاصطنعهُ فإن العلم عند أبي عبيدة
وآثره وقَدَّمه عليه ودَعَّ عنك القريد بن القريدة !^(٩٨)

ونجحت هذه المساعي ، واستدعى أبو عبيدة إلى بغداد في سنة ثمان وثمانين ومائة : أي بعد مقتل جعفر البرمكي مباشرة .

وأغرق إسحق ، ونجاوز الحد في العداوة ، فلم يكتف بالتوصية بحرماته وإحلال أبي عبيدة محله ، وأن يعمد في سبيل ذلك إلى تسفيه علم الأصمعي . فبات يخلق القصص والحكايات التي تستهدف النيل منه ، وهذه واحدة منها ، يجعله في صورة المُتَسَوِّل الملحاح ، ويصف أباه بالندالة والجهل :

يقال إن أبا ربيعة ذهب يزور الأصمعي وهو مريض ، وكان أبو ربيعة يرغب في الأدب ويبرِّ أهله ، فقال له الأصمعي : أقرضني خمسة آلاف درهم ، فقال : أفعل ، وقال : فأى شيء تشتهي سوى هذا ؟ فقال : أشتهي أن تهدي إليّ فصاً حسناً ، وسيفاً قاطعاً وبرداً حسناً ، وسرجاً مُحلّى ! فقال : أفعل ، وبعث بذلك إليه لما عاد إلى منزله ، وبلغ ذلك إسحق فقال :

(٩٦) الموضح ٢٩٧ .

(٩٧) وفيات الأعيان ٢ : ١٤٤ .

(٩٨) وفيات الأعيان ٢ : ١٠٥ .

أليس من العجائب أن قرداً (أصمِع) باهلياً يستطيلُ
 ويزعم أنه قد كان يُفنى أبا عمرو ويسأله الخليلُ
 إذا ما قال : قال أبي ، عجبنا لما يأتي به ولا يقول
 وما إن كان يدري ما دبر أبوه إن سألت وما قيل
 وجلله عطاءُ الملك عاراً تزول الراسيات ولا يزول
 نصحتُ أبا ربيعة فيه جهدي وبعض النصع أحياناً ثقيلُ
 فقل لأبي ربيعة إذ عصافى وجار به عن القصد السيلُ
 لقد ضاعت برودك فاحتسبها وضاع الفصُّ والسيفُ الصقيلُ
 وسرجُ كان للبرذون زيناً له في إثره - جزعاً - سهيلُ
 وأما الخمسة الآلاف فاعلم بأنك غبنها لا تستقيلُ
 وأن قضاءها فتعز عنها سيأتي دونها زمن طويل (٩٩)

ولم يلق الأصمعي هوائاً أكثر مما لقي من إسحق وأبي عبيدة ، ولا أريد أن أترك إسحق
 بخاصة وأصحابه عامة وأمامي أخبار لا يجوز على نسبتها للأصمعي غير هؤلاء . ولا تكاد
 تظمن إلى النصوص التي تشير إلى تقوى الأصمعي وصلاحه حتى ترى نقيضاً لهذه النصوص
 هي بلا شك من آثار الخصومة وإذ ترى خيراً يتخرج فيه الأصمعي أن يشرب من كأس بها
 عرق من الفضة (١٠٠) ترى خيراً آخر يذكره صاحب العقد ، يشرب فيه الأصمعي خمرأ حتى
 يجرب ما عمر من دينه !

أما الخبر الأول فللخطيب عن أبي حاتم يقول : (أهديتُ إلى الأصمعي قلدجاً ، فجعل
 ينظر إليه ويقول : ما أحسنه ! فقلت له : إنهم يزعمون أن فيه عرقاً من الفضة ، فرده إليّ ،
 وقال : إن رسول الله ﷺ نهى أن يشرب في آنية من فضة ونحن نعرف صلة الأصمعي
 بالسجستاني ، وليس يبعد أن يكون أبو حاتم قد أهدى أستاذه هذه الكأس ، وليس يبعد
 أيضاً أن يرده الأصمعي عزوفاً عن الدنيا حذر الآخرة ، ولعل رواية الخطيب البغدادي للخبر
 من غير شك فيه أو تعليق عليه يرجح صحته لما عرف عن الخطيب من ميل إلى الثبوت .

(٩٩) الأغانى ٥ : ٣٨٧ . ٣٨٨

(١٠٠) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

أما الخبر الآخر فيذكره صاحب العقد ويرويه عن الأصمعي نفسه ... ! وعلى هذه الصورة :

(قال الأصمعي : دخلت على هارون الرشيد ، فوجدته منغمساً في الفراش ، قال : ما أبطأ بك يا أصمعي ؟ قلت احتجمت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فما أكلت عليها ؟ قلت : سكباجة وطباهجة ؛ قال : رميتها بحجرها ، أتشرب ؟ قلت نعم ، وقلت : اسقني حتى تراني مائلاً وترى عمران ديني قد خرب فقال يا مسرور ، أى شيء معك ؟ قال : ألف درهم ؛ قال : ادفعه للأصمعي) (١٠١) .

والأمر على هذه الصورة ينفيه قليل من التروى : فلقد عرفنا مسلك الرشيد مع الأصمعي ، وأنه آخذ مؤاخذه شديدة أن أجابه بكلمة تخرج عن إدراكه فقال له : حدثني بما أفهم أترأه يقبل منه الآن لهجة الأمر ويرضى بالأصمعي ماجناً مستهتراً يطلب خمرًا يخرب به ما عمر من دينه ، ثم يأمر خادمه أن يدفع للأصمعي ألف درهم مكافأة له على مسلكه هذا . وقد عودنا الخلفاء أن يأمرؤا بمنحهم في أعقاب المدائح ، أو الرجاء الجميل ، أو استحسان البديهة ، أو العمل الصالح ، أو ما ينبئ عن عمل يتجاوز القدر المشترك ، أو ذكاء خارق وليس في موقف الأصمعي على الصورة التي ذكرها صاحب العقد ما يستحق المثوبة ، وليس في البيت المذكور الماجن ما يسبب طرب الخليفة ، فيهتز ويخرج عن وقار الخلافة ، فيأمر بألف درهم فيه .

والرأى عندي أن أبهة الخلافة في عصر الرشيد ، ووصول الدولة الإسلامية إلى قمة عظمتها التي لم تصلها في يوم من الأيام - أطلق خيال القصاص ، فجعلوا من بلاط الرشيد تربة خصيبة للحكايات والنوادر حتى وصل ذلك إلى أقصى النهايات في الاختراع فيما حكى عن بلاط الرشيد في كتب ألف ليلة وليلة ، وإعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس ، إلى غير ذلك . ولا يخفى أن ابن عبد ربه - أموى الهوى - وله في مثل هذا الخبر قصد أن يسيء إلى الرشيد العباسي ، فالتخذ الأصمعي وسيلة لقصده .

ومع هذا ، فإن شخصية الرشيد لم تعد في وسط هذا الطوفان من الحرافات من يصورها تصويراً حقيقياً ، ويضع هذه الصورة في إطارها التاريخي المتين . فنحن نعلم أنه كان يحج سنة

ويغزو سنة ، ويصلى كل يوم مائة ركعة ، وزجر نديمه الذى تعمد أن يضحكه فى الصلاة وقد سمعه يقول (وما لى لا أعبدُ الذى فطرنى) فقال النديم : والله ما أدرى لم ؟ فقال الرشيد بعد أن انتهى من الصلاة : فى الصلاة أيضًا ! إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما (١٠٢) وكان الرشيد يستفتى العلماء فى كل صغيرة وكبيرة إلا أنه ككل عاهل واسع السلطان كان يفسح المجال لأهل الأدب وأرباب الفنون . وكان فيهم الشعراء والقصاص . فجعلوا من شخصيته هو مسرحاً لخيالهم ، وهكذا وصلنا ما وصلنا من الأخبار العجيبة عنه . وعن قصره ، وحاشيته أما بالنسبة للأصمعى فلم يكن له بلاط يشيع عنه القصص والحكايات . ويصورها بالحقيقى والزائف . ولكن كان له الثالث المتصدى لسلبه كل مقومات فضله ، فنالوا من عمله ، ومن مذهبه أيضًا .